تراث القرية ....
ووجـدان المتلقـى ...

إذا كانت الأسرة ؛ هي النواة الاولي في بناء المجتمع ، واللبنة الأساسية في ترسيخ التراث ، فإن القرية هي حافظة العادات .. ومخزن الآعراف .. تمد المدن بالغذاء .. وتُفعم الذاكرة بالحواديث .. والسير .. وتُدغدغ المشاعر بالمواويل .. والأقاصيص .. وتُقطر التجارب في الحكم ، والأمثال .. تُشعرنا – إذا ارتبطنا بها – بالعِزْوَة .. والتعاضد .. والتكافل .. والمحبة الجارفة .. من هنا كان لقريتي في نفسي مكانة لا يُضاهيها إلا مكانة الجامعة .. وهي التي أمدتني بالحب الذي استعنت به علي العمل .. وكما كان الزاد ، والزوّاد الذي نحمله معنا منها يُعيننا علي التحصيل ، والتعلم ، فإن الزاد المخزون بين جوانحي هو الذي دفعني لإنجاز هذا العمل .. فانا والقرية متحابان .. أنا منها .. وهي تكمن في داخلي ..

كان آخر مطاف للعائلة هو عزبة البدوهة – عمدية الدمايرة مركز بلقاس دقهلية ؛ حيث وُلِدت في صبيحة يوم مُشْمِس من آواخر شهر يناير ، وأول فبراير سنة الف وتسعمائة واربعين .. اي في شهرذي الحجة من سنة الف وثلاثمائة وثمان وخمسين من الهجرة النبوية .

أسموني علي اسم الشيخ علي الصفصافي ، أحد الأولياء ، والمتصوفه الصالحين ، والمقام مقامه في المنطقة .

توفيت والدتي المرحومة فريدة حسن منصور ، وانا لم اتجاوز الثانية بعد .. تركتني وهي تغالب المرض ، وهي تلهث بالدعاء للطفل الرضيع .. ولهذا ، فانا لا اتذكر ملامحها .. وإن كانت حسب اقوال الجميع ، تجمع بين جمال الخُلقُ .. والخليقة .. حباها الله بجمال إنعكس علي كل مَنْ انجبتهم من شريك حياتها ..

أما عن والدي .. فينحدر من عائلة كبيرة في مركز قطور غربية ولظروف رحل مع والدة إلي قرية الخبارية بالقرب من "البحر الصغير" علي فرع دمياط بالقرب من مدينة المنصورة .. ولُد – رحمه الله – في آواخر الثمانيات من القرن التاسع عشر .. تعلم

في كُتاب القرية ، ولكن حالت الظروف دون دخوله إلي الأزهر الذي كان يستعد له .. كان من أكبر الأسباب هو الأستعمار الإنجليزي الذي أحتل الأرض والنفوس ، وكمم الأفواه في مصر منذ سنة ١٨٨٢ م .

– كره الوالد الإستعمار ، وقاومه مع التيار القومي الذي كان يقف خلف مصطفي كامل ، ومحمد فريد ، وثورة سنة ١٩١٩ م .. وكان ضمن من أغلق جنود الإحتلال عليهم جامع الخيارية .. وضيقوا عليه الخناق ، فانتقل بعد وفاة والده مع أشقائه إلي قرية الكوم الأحمر ، بعد أن زوج أخته الوحيدة من عمدة الخيارية .

– استقر به المقام مع من سبقوه من الآقارب ، والآعمام .. واشتري مساحة كبيرة من الأرض من شركة البحيرة في زمام القرية التي وُلدِتُ أنا فيها .

– كان وجيهاً .. شهماً .. كريماً .. لا يجامل في الحق .. لا يّداري ، أو يجاري الظالم مهما كانت منزلته .. فحقدت عليه ، وعلينا النفوس الدنيئة فكادوا له ، وتآمروا عليه .. وشهدوا زوراً ، وبهتاناً ، علي عقود بيع وهمية ، تُفيد أنه قد باع أرضه ، وأرض أخوته إلي وكيل كنيسة القديسة دميانه نجيب أفندي تكلا .. طال الصراع القضائي بيننا ، وبين هذا التكلاوي ما يزيد عن خمس وثلاثين سنة ، ولم تُحسم القضية .. بل سُرِقت الأوراق .. وهرِبّت إلي اليونان .. ودخلت أنا الجامعة ، وكان ذلك عِوضاً لوالدي .

كان والدي من أشد الكارهين للإستعمار ، والمحاكم المختلطه ، وكل أشكال الظلم ، والإقطاع .. كان يُشايع ، ويدعم الشيخ حسن البنا .. تحمس جداً للثورة .. وأحب من صميم قلبه الزعيم الخالد جمال عبد الناصر ، كان يحكي لنا ، ويقص علينا مدي المعاناة التي مرت بها مصر ، ويقول (ولا يعرف قيمة الثورة .. وما قام به جمال عبد الناصر ، ورفاقه ، الا مَنْ ذاق طعم الذل علي يد الإستعمار ، وعَرِف الظلم علي أيدي ذناب الإقطاع .. والحرمان الذي كانت تعيشه مصر عامة ، والقرية المصرية خاصة ..) .

– كان بالنسبة لي الأب ، والأخ ، والصديق ، والقدوة ، غرس في نفسي منذ الصغر كيف أحب كل الناس .. إلا الظالم .. والحاقد .. والمنافق ..

– "ياعزيز . . يا عزيز كُبَّة تاخذ الإنجليز. ." عندما سمعها منى . . وأنا أرددها سنة ١٩٤٨ م قرر أن يُغيِّر مسار حياتي . . وأن يُلحقني بالمدرسة الأميرية بدلاً من الكُتّاب . . وأن أُتابع في التعليم العام . . بدلاً من الازهر . .

– لم يكن يعترض ، أو يخاف عليْ إذا عرف انني شاركت في المظاهرات التي كانت تقوم بها المدرسة الثانوية في بلقاس . . وياتي طلابها ، ويقتحمون المدرسة الأميرية ، ويطلقون سراحنا للمشاركة في المظاهرات قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ م .

– علمني كيف أتحمل المسئولية منذ الصغر ؛ فالمطلوب مني ، وأنا أبن الثامنة ، وفي الغربة ؛ في المركز حيث المدرسة الإبتدائية ، وبعدها الإعدادية ، وفي المنصورة حيث التعليم الثانوي ، وفي العاصمة – القاهرة ، حيث الجامعة أن التزم بقواعد الخُلق القويم ، وأن اتمسك باهداب الدين . . وان اجد في طلب العلم ، لكي اعود إلي القرية ناجحاً . . فالنجاح مطلوب ، «والكحك» مرفوض . . فانا الأمل . . وانا العوض عن كل ما فقدته العائلة . .

– كان إرتباطي بالقرية وثيقاً . . اعود إليها في عطلة آخر الاسبوع لناخذ الزوَّادة ، ونحن في الإبتدائي ، والإعدادي . . وكل اسبوعين ، وانا في الثانوية في المنصورة . . وفي نصف السنة ، والآجازات الصيفية وانا في الجامعة . .

– تعلمت في القرية كثرة القراءة . . فنهار القرية طويل ، ولياليها القمرية تُحب السمر . . كان الكل لايراني إلا ممسكاً بكتاب ، أو مجالساً لشيخي المرحوم الشيخ محمود حسن البسطويسي ، أو القاريء النهم الشيخ صادق حسن الذي كان شاعراً فذاً . . ولكنه مات ، دون أن يسمع به أحد . كان الإلتزام بالعادات ، والتقاليد ، والإلتزام الخُلقي رصيدي الذي لا يمكن التفريط فيه أبداً . . وهو الذي كوَّن رصيد الحب لدي فجعلني .

– افتح في الصيف فصلاً لمحو الأمية . . وأنا في الثانوي . . وتعلم فيه مَنْ أصبحوا من وجهاء القرية . .

– لما كنت الجامعي الوحيد فيها . . فاقمت بمشاركة طلاب المراحل الاخرى حفلات تمثيليه في الصيف . . ونلنا دعماً كبيراً ، من شيخ البلد المرحوم الشيخ

حسنين لبن ، ومن الامين ، والمؤتمن علي كل أوراق ، وعقود وأسرار القرية ، والقري المحيطة احمد افندي عبد الله الدولتلي .. وكان رحمه الله مثقفاً .. محبا للمتعلمين، والمثقفين .. وأذكر أنه كتب لنا تمثيلية شعرية عن عدل الفاروق عمر بن الخطاب ، وكان يحضر معنا التدريبات ، ويساعدني في الإخراج .. ويدعمنا أمام التيار المعارض من أهل القرية .. ربط الحب ، والاحترام بيني وبينه ، رحمه الله ، وبين كل الأبناء ... ولم يكن يأتمن احداً لمصادقة الأبناء من شباب القرية سواي ، ونتج عن هذا الحب أن زوجت سعداً ، الإبن الأكبر ، من شقيقة زوجتي فأصبح عديلي ، ومحموداً الأبن الأصغر من إبنة أختي فصرنا آقارب .. وهكذا .. يخلق الحب .. والإحترام .. النسب .. والعصب .. والقرابة .

– اقمت بالجهود الذاتية سنة ١٩٥٧ م مشروعاً لإنارة القرية ، فلم تكن قرانا حتي ذلك التاريخ تعرف المدارس ، أو المياة النقية ، أو الكهرباء أو الوحدات الصحية .. أو حتي الطرق المرصوفة .

أشهد الله أن بعضاً من سيدات القرية المُعْدَمات ، كن يُقدمن لنا بعض الطيور ، أو الحبوب لكي نبيعها .. ويشاركن بثمنها في مشروع الإنارة

اقمنا للمشروع في ليلة إفتتاحه مهرجاناً يُشبه مهرجان إيقاد الشعلة في الأولمبياد .. أتي صديقي الأستاذ طاهر عز الرجال ، وكان مدرساً بالتربية والتعليم ، بشعلة مشتعلة من خارج العزبة ، إلي ميدان الجامع حيث وسط القرية ، والشعلة الرئيسية .. وفي اللحظة المحددة ، وعند سماع الصفارة قام كل الأصدقاء ، والواقفون أمام الفوانيس بإشعالها .. وفي لحظة واحدة ، ومفاجئة ، تحولت القرية كلها بؤرة مُضيئة .. وسط ظلام حالك ، في إحدي ليالي النصف الثاني من شهر رمضان .. وعقب صلاة العشاء ، والتراويح . ومن هنا ادرك شباب القرية ، واهلها ، والقري المحيطه ، الفرق بين النور ، والظلام وجدوي المشروع ولكن للأسف لم يجارينا فيه أحد .. وأظنه ظل يخدم القرية حتي دخول الكهرباء ....

– كان الإلتزام بالأخلاق القروية ، والحرص علي السمعة الطيبة ، ومصادقة الكتاب .. والتواضع مع الآخرين هو الرصيد الذي خلق لي منبعاً من الحب لا يجف .. ورصيداً من الثقة ما زال موجوداً ..

- لا أستطيع ان انسي الفرحة التي غمرت كل أهل القرية ، عندما نجحت وكان ترتيبي الأول ، وعقب تعييني معيداً .. وعند سفري إلى البعثة .. والإستقبال الحاشد والحار من كل أهل القرية عندما جئت لزيارة خاطفة لهم خلال مدة البعثة في استانبول .. تجمع الأهالي علي شاطيء الترعة .. أنزلوني من السيارة .. تبادلتني الأحضان .. وسط الزغاريد ، وأكواب الشربات حتي وصلت إلي أحضان ابي .. وظلت الفرحة .. والبهجة إلي ان سافرت ثانياً ..

- لا أستطيع ان انسى مدي فرحتهم بي ، إذا ما سمعوني في المزياع ، او شاهدوني علي شاشة التلفاز ..

- اهالي قريتي الآحباب .. انا فخور بكم .. اعتز بابوة الشيوخ منكم .. واتوسل إلي الله بالدعاء والغفران لمن سبقونا إلي جنة الخلد ، واطلب الصفح ، والمعذرة من الأصدقاء .. ومن الشباب .. والأشبال .. والبراعم ، لأنني لم استطيع ان أقدّم لقريتي الحبيبة سوي الأمنيات الطيبة .. والكلمات التي اشهد الله انها صادرة من القلب .

- إنني اعترف ، انكم جميعاً وراء اي نجاح أحققه .. لا املك إلا قلمي .. وكلمتي ... وشجاعتي علي الإعتراف بالتقصير تجاهكم .. فلا استطيع ان ألبي مَطْلَباً إدارياً .. او اقوم بخدمات اجتماعية تؤدي إلي مغانم .. او قضاء مصالح .. لا تقصير مني .. بل رغبة في ان احفظ لكم كرامتكم ، التي لا أود ان تُهدد في شخصي في المكاتب البيروقراطية الإدارية العفنة .

- العَوض عندي ، ان أُسجل بإسمكم ، عطاء كل فرد منكم بين صفحات كتبي .. كلما حانت الفرصة ... وها انذا أستعير منكم اجمل العادات .. وآحلي الاعراف .. أُسجل ليالي السهر في رمضان .. والنقوط في الأفراح .. والوقوف كرجل واحد في التعزية والمآتم ... والزمال في العمل .. والتزاور في المرض .. والتكامل في الملمات .. أهديت لكم جميعاً .. شيوخاً .. واشبالاً .. وبراعم .. كتابي (بشار كمال والقصة التركية القصيرة ..) ولسوف أُخصص كتاباً في المستقبل لسيرتي الذاتية .. وكيف كانت قلوبكم ورائي .. ودعواتكم هي سندي ، ونبراسي في كل مراحل الإرتقاء من حصيرة الكُتّاب إلي منصة الجامعة .. وكيف كان الجلوس معكم علي الحصيرة او فوق

المصطبــة ، أو علي الكنبــة أغلي عندي من مــوائد الملوك ، والأمــراء ، والوزراء .. والسفراء .. لم يكـن يعلوها إلا مناقشة العلمـاء ، أو محاورة المثـقفين في المؤتمرات .. والندوات .. أو الإختـلاء إلي النفس لمحاسبـة الذات .. أو الجلوس علي منصة القضاء للحكم علي أُطروحه الماجستير ، أو الدكتوراه .. أو فحص الإنتاج العلمي ، لأحكم بصلاحية النشـر ، أو نيـل جائـزة .. أو أن صاحبـه يرقـي لشغـل وظيفـة الأسـتاذ ، أو الأستاذ المساعدالشاغرة بإحدي الجامعات المصرية ، أو العربية ..

كان والدي رحمه الله ، يتمني أن أكـون قاضياً .. (ولما) كرهت الحقوق لمعاناتنا من المحامين .. والمحـاكم .. حـقـقت له أمله في ان أكـون حكـماً عَدْلاً بين طلابي .. وطالباتي .. وأن أكون قاضيـاً مُنْصِفاً في التحكيم العلمي .. وترجـماتي .. لا في الحكم .. والضبط الجنائي .. طابت روحك ياوالدى .. ولن أُحيـد عن الصراط الحق التي رسمتها لي مهما كانت الضغوط .. أو المغريات ..

- أُشهد الله أنني أتمثلك في قول الحق ... ومقاومة الظلم .. أرفع راسي ، وهامتي أمام كل المغريات .. أرفض كل أشكال النفاق السيـاسي ، والإداري .. والثـقافي .. والعلمي .. لأنك علمتني كل ذلك ..

- كان أهل قريتي .. بحفلات العرس .. والسمر في الليالي القمرية وحفلات الصيف المجانية .. وراء أختياري للمسرح في أُطروحه الماجستير ، وحياة القرية .. والترابط العائلي .. والحب الدفين في القلوب البريئة .. هي التي أصلت في نفسي .. وآعماق لا شعوري .. العادات .. والآعراف والقيم العريقة التي أستقي منها رحيق هذا الكتاب ...

إن هذا الكتـاب فـيـه خـلاصـة مـلاحظاتي .. ومـشـاهـداتي حول الآعـراف .. والعـادات.. والتقـاليـد .. لقد منحني الله - ببركـة دعاء الوالديـن الفرصه بأن أعيش في تركيا أكثر من خمس سنوات .. وفي إيران ... وتونس والمغرب .. والسعودية .. والأردن .. وسوريا .. ولبنان ما يزيد عن عـشر سنوات.. سجلت فيه كل ماوعـتـه الذاكـرة عن الأسرة .. منذ كانت نـواة .. حتي تصل إلي حجم العائلة الكبيـرة .. حاولت قدر طاقة البشر ان أكون منصفاً ، فيما أُسجله .. محاولاً تاصيل كل ما راودني من أفكار .. إلي أن وقع في يدي كـتـاب (الآعـراف .. والعـادات - المنظور

التركي) فجعلته صنواً لما سجلت ، وتاصيلاً لما وعته الذاكرة وشُحِنت به طوال فترة إقامتي التي تجاوزت الخمس سنين في تركيا الشقيقة .

– إذا كانت هناك كلمة أخيرة.. قبل ان اصل إلي كلمة النهاية في المقدمة .. اقول أن الحب هو القيمة الأساسية في بناء أسرة ذات قيم اصيلة .. الحب. هو الإلتزام الخُلقي.. الحب هو الذي يقينا السقوط في مستنقع الرذيلة .. الحب هو انذي يحفظ للإسرة توازنها .. وللأمة نمائها وتطورها .. كيف .. ؟

– ذات مساء حاورت عن بُعْد بنت حواء التي كانت تروم تكوين أُسرة وتبني رسالة .. هي ترفض الحب .. وأنا أستعذبه .. فهو البناء .. هو العطاء .. هو الخليقة.. فكان ذلك الحوار .. ا انت يا ..

– حبي الذي لم اعشه بعد ..

شوقي الذي اتمنى له الوصال ..

رغبتي التي يمكن أن تذوب .. أو تزول .. بمجرد السماع إليك ... أو التأمل في عينيك ..

– قد تسالين .. لماذا .. ؟

وكيف يكون هذا الذي أُسميه حباً ... ؟

– نعم .. لك الحق .. والف حق في أن تسالين ..

ولي الحق .. الف حق .. في أن أُحِبَ ... وأن أُحَبَ .

– تُحب...!

– نعم أُحب ..

– وما الحب .. الذي تبتغيه .. أو ترومه ..؟

– الحب ..، يابنت حواء ... التي تسالين ..

هو الحياة .. هو الكيان .. هو الوجود ... هو الأمل ..

– كيف.. ؟

- كيف .. !

لولا الحب ... ياعزة النفس .. ما كان الوجود .. وما كانت الحياة ..

تعرفين كيف ..؟

فلولا الحب لما خلق الله سبحانه الحياة ..ولما خُلِقَ الوجود ... فقد خُلِقت الحياة من أجل الحب .. وخُلِقَ الوجود من أجل الحب ... فالحب هو الحياة .. هو سر الوجود ..

أيمكن أن يكون الله قد خلق آدم عبثاً .. ؟ كلا ... لقد خلقه .. لأنه أحبه .. ولأنه أحبه .. خلق له الحب .. خلق له الحياة .. خلق له الوجود .. لكي يستمتع به .. وخلق معه الحب .. ومن أجل هذا الحب .. خلق له حواء .. مِنْ نفسه .. ولنفسه اليس كذلك .. يانسل حواء .. ؟ .. ألم يحب آدم .. حواء .. ؟ أو لوْ لم يُحبها ...أيمكن أن يكون قد أطاعها ... ! إنه أحبها ... فأطاعها ..فذابا .. أطاع الحب .. وعصي الخالق...

الخالق يُحب ... يحب خليقته .. صنيعتة .. آحب آدم ، وحواء .. آحب حتي خطيئتهما ... فغفرها لهما ... أحبهما ... فوهب لهما الحياة ...

إذن .. الحب .. هو سر الحياة .. الحياة بالحب تحلو .. تنمو .. وتتطور ... تخيلي .. يانسل حواء .. الحياة بدون حب ... ستكون جحيم .. بل ستكون أقسي من الجحيم ... الوحدة جحيم .. الحياة بدون حب جحيم مستعر .. حتي الجحيم بالحب يحلو ... والألم ... بالحب يُستغذب ...

الحب .. ياكل الحب .. ليس جسداً ... ليس نزوة ... ليس رشفة من شفاة ... بل ذوبان الروح ، في الروح.. هيام المحب بمَنْ أحب ...

الحب ... وِصال ...الحب ...هيام...الحب امل...الحب عطاء ...الحب بسمة ... والبَسْمَة عطاء .. والعطاء قمة الحضارة .. الحضارة من صنع الحب ..

- الفراعنة .. يانسل حواء .. أحبوا .. فبنوا المعابد .. أحبوا ... فبنوا المقابر .. خاضوا المعارك . اقاموا المسلات .. نحتوا التوابيت .. عرفوا التحنيط لكي يُخلدوا

الحب .. بالحب عرفوا التوحيد .. فالحب يُبعد عن الخطيئة .. يَعصم من المعصية .. شيَّد تاج محل .. أنْزل الملك عن عرشه ...

- ......

- نعم أنا ... أُحب ... واتوق للحب .. وأعيش بالحب واغرس الحب ... وأنتج بالحب ... واتنفس حباً ...

فالأسرة التي تقوم علي الحب تصمد .. وتُقاوم .. تبنى .. وتُحافظ علي ما شيدته .. وما إكتسبته من قيم .. تتسلم الراية مرفوعة ، وتُسلمها إلي الأبناء .. ناصعة البياض ..

إنني أُقدم هذا الكتاب .. كصرخة إلي كل اب ... وكل أُم ... كل أسرة .. وكل مسئول عن التراث .. وحفظ كيان الأمة ... تراثنا هو الكيان الذي يحمينا .. هو الذي يحفظنا ضد الزوبان والإنصهار .. والتهميش .. إننا لا نرفض الحديث .. أو التحديث بل نسعي إليه .. لكي نستنشقه من بين براثن الأسود ... وفم الشيطان .. بشرط الا يقتل فينا هويتنا .. أو يخنق في صدورنا ذاتيتنا .. وألا يطمس لنا المعالم.. أو يُضيع منا ، أو من فلذة أكبادنا الصراط المستقيم .

وعلي الله القصد والنية ...

الصفصافي أحمد المرسي القطورى

أرض الجولف - القاهرة

الإثنين الثاني والعشرين من صفر سنه ١٤٢٠هـ

السابع من يونيو "حزيران" سنة ١٩٩٩م